قصة
السّائحةُ البَلهاءُ
جمال بن عبد الله الحيان

رقم الإيداع الدولي :

ISBN : 890-4446-65-87600

تحقيق ومراجعة :

الشرطي الخلّ والصديق

تقديم :

دعونا من خزعبلات العامية المقيتة ، فلقد هرع سوادٌ عظيم من أشباه الكتاب إلى تسربل العلم بشكل مفكك لا يعلوه رابط ولا يبين منهجه ضابط .

العلم موجود في صميم معمارية العقل البشري ، وهو في أصله تنظيم محكم للمعطيات وسير بها نحو الثبات والتوحيد ، فلا تزرعوا سوسة العامية في الكتابات الأدبية فتجعلوا فيها فجًّا لا قرار له .

والحمد لله العزيز ، استغراقا لكل أنواع الحمد بهذا الكلام الوجيز.

و السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

جمال بن عبد الله الحيان

كنت أحس بتعب يمنعني من الحركة ، لقد رأيته مثل كتلة شحم أو كتلة كبيرة مشوهة ، ترافقت الأصوات مع نعرات في جنبي واستبد بي الغثيان .كانت نظراته مصوبة إلي ، وقد كلفتني تلك النظرة الكثير .

إن قلبي ينخلع في كل ضربة ، والألم يزداد في كل موضع من جسدي وخاصة بين رجليّ، شعرت برغبة كبيرة لأن أتقيّأ ، كانت معدتي تؤلمني ، إننا الآن نواجه نفس العذاب ، ولكنّي سوف أغرقه في النهر يوما ما ، وسأظل أحقد عليه حتى يتحقق ذلك .

كان أخي الصغير يقف في مواجهة الحائط وبين دقيقة وأخرى تهوي رجله اليمنى مفتعلا هيئة الكلب عند البول ، والشاب الوسيم يفعل بي ما يشاء . وبعداوة نظر إلينا و قام .

إنّه الشابّ لطيف الهيئة ذو أنف صغير مقعى ، قوي البنية ، أبيض البشرة ، طويل القامة، أزرق العينين ، وسيم ، الذي ابتسم لنا وسط خمائل الصفصاف اليافعة الكثيفة ، فأخذ دور الصديق الطيب الناصح .

أجلسنا على أريكة حديقته بذلك المنزل الكبير بعد أن دعانا لشرب القهوة واللعب قليلا في ساحة قصره الصغير . استمتعنا بكل ما لذ وطاب من رغد العيش ، وأنا أشاهد العناكب المائية الراكضة كالبرق فوق صفحة مياه المسبح الدافئة ، وفجأة وقف الشاب في الماء عاريا، مغمورا حتى وسطه وهو يبتسم بخبث .

استحييت وأخي من ذلك المنظر المخجل ، وقد حمل في طياته السم ، ونحن نتضرج بالحمرة وهو يقول :

ـــ إنّ التلصص شيء فضيع ومنحط كذلك .

غسق المساء ، وقد حان وقت الرجوع للبيت . أكلنا ما يكفي ولعبنا بمختلف الألعاب في الحديقة ، وأنا على الأرجح مستغرقة في التفكير ، والصقيع شديد قاس ، ترنحت من مكاني أستأذن بالذهاب وأنا شاحبة مرتجفة ، والرياح الباردة تصفّر في آذاننا وتعربد ، تلفح وجهينا بكل قوة .

رمقنا بنظرة متسائلة وصراع يرتسم على وجهه الدقيق :

ـــ إلى أين تريدان الذهاب ...!!

أجاب أخي وقد كفت الأنفاس عن الاحتباس :

ـــ إلى البيت طبعا .

ضحك ضحكة صغيرة تغزو ملامحه :

ـــ لا بأس ، لدي سيارة ، انتظرا قليلا ، سآخذكما حيثما تريدان .

كان في عيني تساؤل ودموع ، وظللت أشير إلى أخي بالانصراف وهو لا يكاد ينظر إلي غارقًا في مشاهدة التلفاز .

دخل الشاب غرفة كبيرة في آخر الممر المؤدي للباحة الخلفية ، وضعت رأسي على طرف الأريكة ، فتوقفت عيناي على صورة لامرأة عجوز حدباء فوق جسدها المحقوقف أهداب بالية ، وتجاعيد على وجهها وصفرة في عينيها خفيفة ، قلّبت عيني في أروقة هذا الصرح المهيب ، كانت رائحة الفراش لذيذة أول الأمر، عدلت الوسادة وحاولت أن أستلقي ، فلم أكن أريد سوى عشر دقائق . بدأت الأفكار تغزو رأسي بطيش ، وأنا تحت الضوء المنسكب من السقف ، استدرت بسرعة وانتفض وجهي من الألم وتقلص حين سمعت نباح الكلاب في تلك الغرفة الواطئة المظلمة بالحديقة .

كانت رائحة الحبر بجواري كريهة جدا ، ونزت يدي بالعرق من شدة التوتر ، وأنا أخطو نحو ورقة ممدودة على المكتب ، تقلّص مني الألم و بدأت بتفحصها ، فإذا بي أصفع ببصقة في وجهي ، وضربة على الرأس ، فغبت لثوان ...

فتح الشاب باب القبو ودفعني بقوة ، وأخيرا رضخت لرجل أبيض تماما كالشبح ، قادني كما تقاد السائمة البلهاء بأعواد الكلإ إلى مصرعها .

لم أقاوم كأني أريد أن أعاني ، وفي عينيّ دمعة مترقرقة ، وأخي قد جُرّ من رجليه جرّا ، وأنا أرى مرارة العيش وصورة الشقاء ، لقد كنت أمنّي نفسي ببارقة واحدة من بوارق الأمل في هذا القبو المظلم .

فمن لي بالعزاء عنك إن فقدتك يا أخي ، قد نصبح ذكرى بالية في كتاب زمن غابر ، لم نعد نرى شمسا مشرقة ولا كوكبا زاهرا ، لقد هاجت في صدرينا أحقاد وسط هذا المكان المقفر الموحش ، ولا أحد من القاطنين والطارئين سيتوقع وجودنا هنا .

كنت أستأنس بأخي أنس الغريب بالغريب ، في قطع سواد هاته الظلمة التي تتدجى وتتكاثف ، بآكية منتحبة ، لم أعد أفرح ولم أعد أتألّم ، فقد كدت أصبح عجوزا حدباء . أنا لا أخجل من اعترافي ، بل أطلقه بملء فيّ ، فكلنا ريش في مهب عواصف الحياة ، وما هي إلا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بيننا بضرباته وتمكّنا من الهروب ، ومن منّا لم تُنشه متعته ويُضنه عذابه . لقد سرى فيّ النبض و استقبلتني الحياة .

أنا تلك الفتاة الحلوة المرحة اللطيفة التي تملكها الدهش ، ولكني ريشة في مهب العاصفة العاتية .

لقد سُلبت حريتي من رجل كان الأولى أن ننأى بنفسينا عنه وأن نعيش بمنجاة منه ، قوّض حياتي ، سلب كل ما أملك ، شرفي ، عذريتي ، كل شيء ...

لقد أتى بكل ما هو شاذ مستغرب ، بل حتى أخي الصغير لم يسلم منه ، أصبحت جامدة الحس ، مادية التفكير ، كافرة بالعواطف ، هازئة بالحب ، لا أضحك ولا أشعر بشيء ، أصبحت آلة للمتعة كل ليلة من ليالي القبو لرجل نافذ ، صارم ، وفي كل يوم أُضرب ضرب غرائب الإبل .

أصبحت أسيرة في ظروف هوجاء ، ومشاعر مرهفة ، هادئة ، غارقة في العباب ، محروقة بالشواظ .

ما أغبانا وما أسخفنا ...!!

ما لنا والغرباء ...!!

كنت ناعمة البال ، قريرة العين بأسرتي الصغيرة ، أما الآن فلست سوى جثة خالية من المشاعر والرقة ، بداية من ذكرى ذلك القصر المنيف ، والنعمة السابغة ، والهناء المقيم .

لقد تمكنت وأخيرا من الاستسلام للإغراء الذي وقعت تحت وطأته ، والظروف التي اضطرتني للرضوخ ، كنت مجنونة طائشة ، مخلوقة جافة ولكنّي الآن قد كبرت واشتد عضضي ولم أعد تلك الفتاة الصغيرة ، تمكنت وأخيرا من التفكير ، كنت في منتهى الغباء ، وهذا الكبت في مشاعري من تلك الفترة الغابرة، أنا الآن أنبش أحداث الماضي ، وقد قتلت في نفسي كل ميل للعاطفة أو الرقة أو الخيال ، وقد لذغت من جحر الغدر مرة ، ونشأت من أجل هذه اللحظة ، فما أودى بي إلى التهلكة غيرك يا وغد ، وما دمر حياتي سواك يا كلب .

الآن قد تقويت وكبرت وعرفت من أنت ، ما رأيك الآن ...!!

درست أعواما منتظرة هذه اللحظة ، وقد وعدت نفسي أن أغرقك في النهر ، ولكني غيرت رأيي ، فما قولك يا أحمق ، أجب ...!!

نسيتُ أني قطعت لسانك للتو ، وسأبيت الليل بطوله أستمتع بتقطيعك ، انتظرت هذه اللحظة لسنوات .

ساعدني يا أخي على خلع سرواله ، فأمامنا ليلٌ طويلٌ ومشروع انتقام ولا في الأحلام .

انتهى بفضل الله وكرمه في 3 صفر 1442 هـ / الموافق ل 20 شتنبر 2020م